محاولة لتوظيف التحليل النصي على نماذج نصية موجهة للمتعلمين (للقراءة والكتابة ، تعليم اللغة العربية للكبار)

خولة طالب الإبراهيمي
- جامعة الجزائر

إن محاولتنا هذه والتي نريد من خلالها التمثيل لكيفية توظيف مفاهيم التحليل النصي وأدواته في الميدان ، لا تندرج في إطار نظرية القراءة (التي تهتم على وجه الخصوص بقراءة النصوص الإبداعية) بل تندرج في إطار أعم وأشمل يطرح للبحث والدراسة إشكالية القراءة كعملية تستهدف كل أنواع النصوص المتداولة في المجتمع . في نفس الوقت إنها محاولة مرتبطة ، مندرجة في إطار خاص إذ أنها تمت ضمن تجربة رائدة في تعليم اللغة العربية للكبار في بلادنا . فنفهم من ذلك أننا لا نتعامل مع أي قارئ بل بقارئ من نوع خاص ! هذا القارئ هو المتعلم (apprenant) الكهل الذي نريد أن نكسبه مهارات التبليغ في اللغة العربية .

وحاجة هذا المتعلم للتعامل مع كافة أنواع النصوص التي يلتقي بها في حياته الإجتماعية والمهنية ماسة وكبيرة فلابد أن يقرأها وربما في مرحلة لاحقة أن يحرر هو أيضاً نصوصاً إذ اقتضت الضرورة الى ذلك . نفهم من ذلك أن الطلب الذي يوجهه هذا المتعلم يتمثل في تعليمه سبل التعامل مع هذه النصوص إذ أنه يريد أن يقرأ نصوصاً أصيلة وأصلية (أي ليست موضوعة لهدف تعليمي) وللإستجابة لهذا الطالب وهذه الحاجة فكرنا في وضع نموذج (نمط ، مثال (MODELE) لقراءة النصوص «فهم - تأويل - فك البنية النصية» ولوضعها تأليفها أي كتابتها) ، وهو نموذج مبني على مفهوم إجرائي هو مفهوم الملكة النصية التي تعتبر مكوناً من مكونات الملكة اللغوية التبليغية العامة الذي يهدف المعلم خلقها لدى المتعلم ونحن بذلك تندرج أو ندرج تجربتنا ضمن الاتجاه الوظيفي التبليغي السائد هذه السنوات في تعليمية اللغة .

ويهدف هذا النموذج عند تحقيقه الى جعل المتعلم قادراً على :

- فهم النصوص وقراءتها حيث تنهي فيه مهارة القراءة .
- للوصول الى تأليف نماذج نصية على منوالها بتوظيف مهارة الكتابة والتأليف .
- وذلك كله قصد تنمية الحس النقدي لديه (هو القارئ المتعلم) تجاه العدد الهائل من النصوص التي تكتسح الميدان والمجتمع في زمن تكثر فيه المنشورات وتطغى فيه وسائل الإعلام والإتصال المكتوبة وغير المكتوبة طغياناً لا مثيل له لتوجيه الرأي العام في ميوله وأدائه .

وقد اعتمدنا في وضع هذا النموذج على المفاهيم والأدوات التي تقدمها لنا اللسانيات النصية عند تحليلها للنصوص وتحديدها لمكونات النص ونريد من وراء ذلك قياس مدى إجرائيتها لخدمة أغراضنا التعليمية وقد ركزنا بطبيعة الحال على الجوانب التي نعتبرها محورية وأساسية في مشروعنا .

والجدير بالملاحظة أن النصوص عندنا لا تقتصر على النص الإبداعي الأدبي بل إننا نعتمد في تناولنا على مفهوم واسع للنص يشمل كل أنواع النصوص التي ينتجها المجتمع مكتوبة في الأصل كانت أو منسوخة عن المنطوق أو المسموع المرئي فالنص في اعتبارنا هو في نفس الوقت شكل وصورة . محتوى وبنية لغوية تؤدي وظيفة تبليغية معينة .

والنص في المنضور اللساني المتداول في يومنا هذا هو تشكيل لغوي يكتسب صفة النصية أو طبيعته النصية بكونه مشكل من شبكة من العلاقات التي تتمحور وفق محورين : محور خطي حيث تتسلسل الوحدات اللغوية المكونة للنص في العلاقات النصية الداخلية التي تضبطها أحكام النحو والمنطق والمناسبة المعنوية أما المحور الثاني فتندرج فيه العلاقات المعنوية المرجعية التي تربط النص (المحتوى اللغوي) بمحيطه المرجعي ، تلك هي العلاقات النصية الخارجية .

النص إذن هو نتاج مؤلف تربطه بالمحيط علاقات معينة تؤدي أغراضاً ومقاصد معينة وبالملتقى علاقات تندرج كلها ضمن مفهوم التماسك(cohesion) والمناسبة أو التناسب(coherence) حيث أن مؤشرات التماسك علامات لغوية ظاهرة في النص (الروابط شبكة المضمارات . علامات الرقم التنغيم الى آخره) أما موشرات التناسب فبعضها ظاهر في النص والآخر نستشفه من ربط النص بالنصوص الأخرى (النصانية) أو مما يؤديه النص من أغراض ومقاصد تبليغية وتداولية .

وقد تمّ تجريب هذا النموذج في الميدان من خلال إقامة بعض التجارب الفردية أو الجماعية (أي أنها تستهدف متعلماً واحداً أو مجموعة من المتعلمين ، أجريت التجربة الجماعية الأولى بمساعدة زميلة لنا هي الأستاذة شريفة عطاس من جامعة الجزائر أما التجارب الأخرى فقد أجريناها بمفردنا مستغلين بذلك صلاتنا وعلاقاتنا الشخصية بزملائنا الأساتذة الجامعيين إذ أن جل المتعلمين إن لم نقل اغلبهم من التعليم العالي الذين كانوا يتابعون دروس التعريب آنذاك ، فقد قمنا إذن بتجريب[☆] النموذج في إطار جماعي من خلال محاولة لوضع طريقة لتعليم اللغة العربية لجمهور من الكبار (أساتذة وموظفون سامون) في إطار فردي ضمن تجريبتين :

☆ قراءة نصوص متخصصة في علم الإجتماع والتاريخ (العلوم الإجتماعة بصفة عامة) من خلال إنتاج المفكرين العربيين محمد عابد الجابري وسمير أمين .

☆ مسار تعليمي (قراءة الكتابة) مع أساتذة في البيولوجية كانت لا تستطيع القراءة والكتابة في اللغة العربية فأصبحت تقرأ النصوص البسيطة .

☆ في إطار جماعي من خلال تقديم نموذج نحاول من خلاله وضع طريقة للقراءة الوظيفية للنصوص المتخصصة لجمهور من المتعلمين الكبار ، (العلوم الإجتماعية ههنا) .

ولم نتوقف عند هذه المرحلة أي مرحلة القراءة بل تجاوزناها - خاصة أثناء إجراء التجربة الجماعية الأولى) بدعم نموذج القراءة بنموذج يهدف الى جعل المتعلمين قادرين على التأليف والكتابة . فبعد تقديم النص وقراءته وإستيعاب أنماطه وتركيباته ومضامينه نطلب من المتعلمين أن ينسجوا على منواله نصوصاً من عندهم .

ونورد على سبيل المثال اليوم مثالين لما أنتجه المتعلمين في حصص الكتابة التي كانت تأتي دائماً بعد حصص القراءة إذ تكون خاتمة أسبوع من النشاط والعمل (والأسبوع تتوزع حصصه على عشرين ساعة) .

المثال الأول هو عبارة عن صنف من النصوص يكثر وروده في الصحف والمجلات يخصص له ركن خاص هو ركن طلبات العمل . فإذا قرأنا النصين اللذين بين أيدينا نجد أن النص الأول لم يخرج عن الشكل التقليدي المألوف حيث ظل المتعلم متشبثاً بما قرأه ولم يخرج عن حدوده أما النص الثاني فإنه بلهجته الساخرة والمتهكمة يكشف عن مقدرة فائقة للتحرر من النماذج المقترحة .

وما نستخلصه مما سبق ذكره في تحديد اللسانيات النصية للنص مما يخدم هدفنا ومشروعنا هو أن يمكن تحديده بالنظر الى بعدين : بعد إستعمالي وتداولي نتساءل فيه عن المؤلف والقارئ الذي يوجه له النص وعن الغرض من تأليف النص وبعد تركيبي ونصي نهتم فيه بالكيفية التي ركب بها الخطاب ليصبح نصا . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن النموذج الذي نقترحه اليوم مبني على تصور خاص لعملية القراءة التي هي في الأصل عملية فردية وذاتية يتعامل فيها القارئ مع النص بكيفية خاصة يعكس فيها ثقافته وقدراته ولكنها ولإن كانت كذلك فإننا نعتقد أن القراء على اختلاف مقاصدهم يسلكون فيها مجموعة من السلوكات المشتركة التي تجعلنا نعتقد أنه من الممكن وضع نموذج عام على أن يتعامل معه كل قارئ وفق قدراته وميوله . فقد لاحظ المختصون أن القراءة أي العملية لا تتم على بعد خطي واحد من بداية النص الى آخره (أي وفق تسلسل الوحدات) بل أن القارئ ينتقي في النص بعض الظواهر يتخذها معالم له تنير له السبيل للتوغل في النص ثم يضع من خلالها بعض الفرضيات تساعده على إدراك النص شكلاً ومضموناً .

فهذا الذي نريد لمتعلمينا أن يصبحوا قادرين عليه فمحاولتنا كلنا تنسب في مساعدة هؤلاء المتعلمين على إقامة هذه الفرضيات معتمدين على خصائص النص التركيبية والتداولية .

فالنموذج المقترح إذن هو عبارة عن مجموعة من المسالك الإكتشافية التي تسمح للقارئ التعامل مع النص والتوغل في مضامينه كل مسلك إكتشافي مبن على جانب من جوانب النص ، إما تنظيمه المادي والشكلي أو التنظيم المنطقي أو تسلسل الأفكار وتناسبها إما بعده الإستعمالي التداولي بالإهتمام بعلامات المؤلف في النص أو بتلك التي تؤشر للعلاقات التخاطبية بينه وبين قراءته أو بتلك التي تعبر عن مواقف المؤلف وآخر بالعلامات الوظيفية التداولية التي تنم عن أغراض النص ومقاصده .

صيغ كل مسلك إكتشافي في شبكة من الأسئلة تقدم للمتعلمين يحاول الإجابة عنها بالرجوع الى النص محاولاً قدر الإمكان التحرر من القراءة المجانية ويمكن أن يجري التمرين بالمفرد أو ضمن جماعة من المتعلمين في قاعة الدرس أو البيت حيث يحضر المتعلمون النص للحصة القادمة .

سمينا هذه المرحلة التي يتبع فيها المتعلمون مسالك القراءة بمرحلة الإستيعاب ، إستيعاب النمط وهي مرحلة بناء مهارة القراءة وتوطيدها حيث نطمح بعد فترة للوصول بالقارئ المتعلم الى القراءة الفردية المستقلة .

المثال الثاني نختتم به مدة المداخلة قصيدة أنتجها أستاذ في الحقوق حاول من خلالها تصوير ما أحس به وما فهمه وهو يقرأ معنا قصيدة الأطلال للشاعر المصري إبراهيم الناجي تلك القصيدة المشهورة التي أدتها الراحلة أم كلثوم ، والأمثلة مقدمة كما قدمها المتعلمون أنفسهم لي أثناء إجراء التجربة في القسم وبخطهم .

(محمد بسنان : حي الزيتون ، وهران/الجزائر) له خبرة في تأهيل السيرات المختلفة (البنوع) منذ 20 عام يعود العمل في إحدى الشركات الوطنية بولاية وهران .

(الأمير أبو طعطع المتوسط الأبياض) : «القصير الغريب» . الخليج العربي 30 سنة ، خريج بطن أمه ذو خبرة معتبرة في تضييع الأموال ، ألعاب الخط (خاصة البوكر) ومتخصص في محل المشربات الزوجيات وفي الراحة والكسل ، يبحث عن إمارة أو سلطة في أي مؤسسة من المؤسسات الدولية الجزائرية .

- الحكم مضمون -

يا عزيزتي ...
لا أستطيع أن أعيش بعيداً عليك
والليالي أضحت اليوم تعذيباً
ما أجمل عيونك ...
إخترت الحب وأنت الصمت ...
لا تعذبي قلبك ... آمني بالحب
ولا تقفي كالطير التائه
تعالي فوق صدري ولا تخافي ...
أنت حبي وآمالي ...

☆ في بداية الأمر كما كنا نود أن نقدم مداخلتين ضمن الملتقى ، الأولى متعلقة بمفهوم النص في الدراسات اللغوية الحديثة نعرض فيها أهم المفاهيم التي توظفها اللسانيات الحديثة لتحديد النص كوحدة متكاملة ومتجانسة أما الثانية فتعرض فيها تجربة لتطبيق التحليل النصي في تعليم اللغة العربية . إلا أننا وبعد سماعنا للمداخلات التي قدمت أثناء هذين اليومين وكذلك شعورنا برغبة الحاضرين للوقوف على نماذج تطبيقية يستشفون من خلالها حقيقة التحليل النصي ، قررت أن أعرض المداخلة الثانية مازجة من التنظير والتطبيق (محتوى المداخلتين) حيث أن

المحاولة التطبيقية ترتكز عند إجرائها على ما توصلت إليه اللسانيات النصية من مفـاهيم وأدوات نصية . ونحن بذلك نظل أوفياء لمنطلقاتنا الأصلية وهواجسنا التي تشغل بالنا منذ فترة طويلـة والمتمثلة في البحث عن سبيل تطوير تعليم اللغة العربية ومحاولة تقـديم أو إقتراح نموذج جـديـد لتناول اللغة العربية كأداة للتعليم .

☆ قد أوردنا ووصفنا هذه التجارب كلها في الرسالة التي قدمناها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة ستندال Grenobel ونـأمل أن نوفق في نشرها في المستقبل القريب .

Apprentissage de la Langue Arabe pour les Adultes Contribution à L'élaboration Méthéologique de Contenues et Materiels de Dactiques pour L'enseignement de la Langue Arabe aux Adultes en Algerie, «Thése de Doctorat en Lettres et Sciences» Steed Hall (GRENOBLE 3), Octobre 1991.